دور "الآداب" في القصة العربية الحديثة

بقلم سليمان فياض

باديء ذي بدء ، كان بودي أن يعدّ لهذا العدد من « الآداب » ، احتفالا بدورها الفكري والادبي في ثقافتنا العربية ، وحياتنا الاجتماعية ، على مدى ربع قرن طوال عام على الاقل . لكن العذر قائم لصاحبي « الآداب » سهيل وعايده وللكتاب العرب الذين يدينون « للآداب » بحق الوفاء . فالظروف العربية عامة ، واللبنانية خاصة ، كانت سريعة الايقاع ، متلاحقة الاحداث في السنوات الاخيرة وبالتحديد في العامين الاخيرين . وبلغت من شدة الوطأة ، أن اضطرب صدور « الآداب » في موعدها. وتشتتت علاقة « الآداب » بكتابها ، وهي علاقة كانت حميمة دائما بالآداب وبرئيس تحريرها ، تشتت علاقة الكتاب انفسهم بضمائرهم وفكرهم واقلامهم وحياتهم . لقد طحنت الاحداث العربية الجارية الثقافة والمثقفين وشغلت محنة المعيشة ، للحفاظ على مجرد الوجود والبقاء ، سائر الكتاب في أرجاء الوطن العربي الكبير .

العذر قائم «للآداب» وصاحبيها وكتاب «الآداب» . ولذلك ، عن نفسي ، لا أملك الوقت المتاح لتقديم دراسة عن دور « الآداب » في القصة العربية الحديثة منذ صدورها الى يومنا . فضلا عن الاعداد الكاملة التي صدرت من « الآداب » طوال خمس وعشرين سنة ، للمراجعة ، والتذكر ، وتركيز النقاط ، لهذه الدراسة التي اشعر بأهميتها ، على الاقل ، لنفسي ، ككاتب قصة ارتبطت قصصه دائما « بالآداب » ، بنسبة تزيد عن تسعين بالمائة ، من مجموع ما كتبته من قصص منذ عام ١٩٥٤ ، وحتى منتصف عام ١٩٧٣ . لقد أجلت دائما أسبوعا بعد أسبوع الشروع في هذه المحاولة ، وبدا الامر شديد التأريق لي ، ووجدتني عاجزا بالفعل ، عن كتابة دراسة ، بل عن كتابة أي عمل أدبي جاد . ان الشعور بالاحباط المستمر ، وبالحاجة القاهرة للمحافظة على مجرد الوجود والبقاء ، قد عاقني للعام الرابع عن كتابة اكثر من قصتين ، وهذا الشعور نفسه يعجزني عن كتابة هذه الدراسة . وهأنذا أجلس لاكتب مجرد خواطر وانطباعات ، مما أذكره الآن ، ومما بقي في نفسي عن دور « الآداب » في القصة العربية الحديثة على مدى ربع قرن ، منذ عام ١٩٥٢ الى يومنا ، ولا أعتقد انني سأقدم كل خواطري وانطباعاتي . ولا أعتقد كذلك انني سأفي بحق « الآداب » عليّ في هذا المجال . حسبي أن أشير الى بعض الخطوط العريضة ، والظواهر القصصية، التي عشتها مع « الآداب » . ومع ابناء « الآداب » من كتاب القصة في عالمنا العربي .

★

بالتأكيد ، لعبت « الآداب » دورا هاما ، بل أخطر الادوار على الاطلاق ، في نمو تجربتين أدبيتين : الشعر العربي الحر ، والقصة العربية الجديدة . لقد كانت بشائر هذين الشكلين في الادب العربي ، سابقة على وجود « الآداب » وصدورها ، في سنوات الاربعينات ، على أيدي شعراء من أمثال السياب ، ونازك ، وقصاصين من أمثال يوسف الشاروني ، وادوار الخراط . وأزعم ، على الاقل أشك كثيرا في انه كان متاحا لهاتين التجربتين الرائدتين شعرا وقصا ، وشكلا ومضمونا ، أن تنموا ، وتقطعا أشواطا طيبة، بل ان تستمرا في البقاء والاستمرار، وتقدما اضافة جديدة لديوان الشعر العربي ، والقصة العربية ، بعد جيلي مدرسة الديوان ، ومدرسة أبوللو ، في الشعر ، وبعد كتاب القصة العربية في العقود الاربعة الاولى من هذا القرن ، وبخاصة في مصر ، وسوريا ، والعراق . من أمثال نجيب محفوظ ، ويحيى حقي ، وعادل كامل ، وعبد السلام العجيلي ، وتيمور . لقد ولدت « الآداب » اثر اغلاق مجلتي « الرسالة » و « الثقافة » في مصر ، بعد مجلتي « الكاتب المصري » و « الكتاب » ، في السنوات التي تلت الحرب الاولى بين

العرب واسرائيل . وقبل أن يحدث فراغ ثقافي في الفكر وفي الادب ، تصدت « الآداب » ، وبروح جديدة مغايرة في التحرير والاختيار والاتجاه . لما كانت عليه هذه المجلات التي بدا انها شاخت عن متابعة الاحداث . وعجزت عن مواكبة التطور الفكري والاجتماعي والثقافي في ذلك الحين . دعونا نفرغ من هذه الاشارات الى دور « الآداب » في القصة العربية .

★

عند صدور « الآداب » . كانت القصة التقليدية . هي التيار السائد ، في النماذج القصصية العربية . تجرها في أذيالها ركاما من القص التاريخي ، ومن الرؤى الكلاسيكية والرومانسية ، وكان يغلب عليها لغة الاكلشيهات الموروثة والصور المجازية ، والاسلوب الغنائي والخطابي ، وطابع الحدوتة ، بل وسجع المقامات أحيانا . وكان لهذا التيار ممثلوه المستمرون في الكتابة والبقاء من أمثال محمد فريد ابو حديد ، وتيمور ، وباكثير ، والعريان ، والجارم ، ويوسف السباعي . ورافق هذا التيار تيار آخر ، كان يطرق ابواب الواقع في الادب القصصي بالحاح ، وفي اتجاهين متوازيين ، اتجاه الواقعية النقدية ، واتجاه الواقعية الاشتراكية .

بدأ الاتجاه الاول متصاعدا على أيدي المازني ، وطاهر لاشين ، وعيسى عبيد ، ونجيب محفوظ ، ويحيى حقي ، ومحمد عفيفي ، ومحمود البدوي . وبدأ الاتجاه الثاني متصاعدا على أيدي عادل كامل في رواية « مليم الاكبر » ، ويوسف ادريس في أقاصيصه القصيرة التي كانت تنشر على صفحات « المصري » ، وعبد الرحمن الشرقاوي ، وسعد مكاوي وزكريا الحجاوي ، واحمد عباس صالح . ولقد صاحب هذين التيارين آراء نقدية تدور كلها حول قضيتي الفن للفن ، أم الفن للحياة ، وحول قضية الواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية . وجاءت « الآداب » ، والفلسفة الوجودية في مدّها الفكري والفني ، والواقعية الاشتراكية أيضا في مدّ آخر ، في الساحة الثقافية العربية . وطرحت « الآداب » منذ اليوم الاول فكرة الالتزام في الادب . وحول الالتزام دارت معارك نقدية على صفحات « الآداب » طوال سنوات الخمسينات التي أعقبت صدورها . وكان المحور في مناقشة قضية الالتزام في الادب : النظرة الوجودية من ناحية ، والنظرة الاشتراكية من ناحية أخرى . وفي ضوء هذا الجدل النقدي حول الالتزام ، نوقشت الواقعية بكل اتجاهاتها ، ونوقشت قضية العامية والفصحى في القص العربي . لقد بدا بالفعل ان تيار الواقعية يجرف على صفحات « الآداب » كل ما عداه من تيارات وقضايا . لم يخل الامر ، بطبيعة الحال ، في نقد القصة وابداعاتها العربية من مؤثرات ورواسب التقليد ، وبقايا التراث اللغوي والاسلوبي والفكري ، الكلاسيكية والرومانسية . وفي طريق الواقعية . قدمت « الآداب » ، المجلة . ثم الآداب ، دار النشر ، التي ولدت من « الاداب » المجلة ، أهم ما ترجم أو ألف من نقد . أو من فصص في وطننا العربي كله ، فصارت بحق ، وعن جدارة ، المجلة الفكرية والادبية الاولى في العالم العربي . بل وساعدت بوجودها هذا . وبهذا المستوى الملفت للنظر ، في تفجير حركة النشر للكتب الثقافية المترجمة والمؤلفة ، في لبنان ، وفي سوريا (دار اليقظة للترجمة والنشر مثلا) ، وحركة أصدار المجلات الثقافيه من أجهزة الثقافة الرسمية في كثير من عواصم الادب العربي في مصر ، ثم في سوريا ، ثم في العراق ، وسواها من عواصم الادب العربي .

★

قدمت « الآداب » للادب العربي ، أسماء لامعة الآن من النقاد ، والقصاصين العرب ، الـذين نشروا اكثر كتاباتهم النقدية ، والقصصية في مجلة « الآداب » ، وجمعوا أكثر ما نشروه في « الآداب » المجلة في كتب نشرتها دار الآداب ، أو أصدرتها أجهزة الثقافة الرسمية، ودور النشر الخاصة في عواصم الادب العربي ، وبخاصة في مصر ، وسوريا ، والعراق . وتعكس الكتابات القصصية على صفحات « الآداب » قضايا الوطن العربي المتلاحقة ، أحداثا وسياسة وحياة اجتماعية ، من رؤى مختلفة ، أقلها دعائي مسطح ، كتب على عجل في غليان الاحداث الاجتماعية والسياسية الجارية . لكن الكثير منها نجا من هذه الهاويه الى حد فني كبير ، ربما لانها كانت تجارب معاشة . وربما لتمرس الكتاب الموهوبين حقا بفن القص ومعرفتهم الدقيقة بحدوده . لكن الجدير بالذكر هنا ، هو ان الفضل الكبير في نجاة اكثر ما نشر من قصص على صفحات « الآداب »من الضعف الفني ، يرجع الى مواكبة النقد المستمر والعاجل لما ينشر من قصص « بالآداب » أولا بأول. في باب « الآداب » الشهير « قرأت العدد الماضي من الآداب » ، ثم في باب « النتاج الجديد » ، أو فيما ينشر من مقالات ودراسات نقدية تطبيقية على بعض ما صدر لكتاب « الآداب » منمجموعات قصصية أو روايات . لقد لعبت هذه المتابعات النقدية دورا هاما في تأصيل الافكار والمفاهيم القصصية من ناحية ، وفي مراجعة كتاب القصة لانفسهم فيما سوف يكتبونه بعد ذلك ، بل وجعلتهم حريصين على أن يقولوا في قصصهم شيئا ، وأن يجسدوه بالصورة القصصية المحكمة البناء ، السليمة المعالجة . وحريصين على أن يكونوا ملتزمين بقضايا مجتمعهم وأمتهم الى حد بعيد ، وأحيانا الىدرجة تطغى فيها الدعاوة المعتقدية والسياسية على بعض اعمالهم القصصية ، وتوقعها في هوة المباشرة والتقريرية ، والانفعال الحاد ، أو البرود الفكري .

★

في رصد عابر ، لبضع عشرات من أعداد مجلة « الآداب » ، واجهت عبر الفهارس عددا من القصاصين من سائر أقطار الوطن العربي ، يقرب من مائتين وخمسين اسما ، نشروا قصصهم القصيرة ، وتلك القصيرة الطويلة، ورواياتهم القصيرة على صفحات مجلة «الآداب» ، وربما كان عدد من كتبوا القصة ونشروا ما كتبوه على صفحات « الآداب » ضعف هذا العدد . وأحسب ان « الآداب » بحاجة هي وقراؤها ودارسوها الى نشر فهرس كامل مبوب ومصنف لكل ما نشر في أعداد « الآداب » طوال ربع القرن الذي مضى من عمرها . وبينهم كان رفاقي على درب القصة العربية من كتاب الخمسينات والستينات والسبعينات من القصاصين الموهوبين حقا ، على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية والادبية ، وبخاصة في مصر ، وسوريا ، والعراق ، وفلسطين ، ولبنان ، والمغرب ، والجزائر . بعض هؤلاء الكتاب كانوا من جيل القصاصين في الاربعينات مثل يوسف الشاروني، وادوار الخراط ، وعبد السلام العجيلي ، وبعضهم كان من جيل القصاصين في الخمسينات في مصر وفي سوريا ، وهما ألمع قطرين عربيين في مجال الابداع القصصي والمسرحي منذ الخمسينات وحتى الآن . بعضهم ظل متألقا في مجال القص ، وبعضهم خبا نجمه وتوارى ، لانه آثر مجالا آخر لقلمه ، أو آثر أن يحيا حياة أخرى ، أو جاوز الاربعين ، أو انتهت به تجربته الحياتية الخاصة الى عدم جدوى الكتابة ، وسط الاحداث الجارية ، والحافلة بالهزائم والاحباطات . بعضهم يمكن أن أعدّه مثلي من أبناء « الآداب » المجلة ، حتى وان قاطعوها ، وكفوا لسبب أو لآخر عن النشر فيها مثلي ، ومثل زكريا تامر ، وهاني الراهب ، وأديب نحوي ، وحيدر حيدر ، ووليد اخلاصي ، وسميرة المانع، ومحمد زفزاف ، والطاهر وطار ، ورشاد أبو شاور ، وفارس زرزور . فقد شهدت المجلة ميلادهم ونموهم الادبي سنوات عديدة متلاحقة . لقد كانت « الآداب » مرآة حقيقية ، كمجلة أدبية ، للموهوبين ، وأنصافهم ، وأرباعهم ، وجهدت لتنشر لهم أفضل ما كتبوه ، أو تنشر حتى أسواه ، حين يتحتم على المجلة أن تصدر بعدد صفحاتها المفترض ، وفي مواعيدها الشهرية المعتادة ، وليس لديها مما حمله بريدها أو مراسلوها ، الا مواد قليلة جيدة المستوى . مدت « الآداب » لاكثر القصاصين يد التشجيع ، آملة بالتفاعل ، وبالزمن ، في نبوغ خمسة أو عشرة بالمائة من بينهم ، يكونون رصيدا ثقافيا ، وعلامات قصصية بارزة ، في تاريخ الادب العربي . وبلغ هذا التشجيع ذروته في سنوات المدّ الادبي الحقيقية منذ منتصف الخمسينات تقريبا وحتى نكسة ١٩٦٧ الرهيبة والمدمرة ، ثم تناقص هذا التشجيع من «الآداب» لانشغال صاحب « الآداب » بمعجمه « المنهل » ، أو لانطلاق روافد جديدة في القصة العربية ، لم تهضم نماذجها « الاداب » ، أو تحفظت في نشرها ، فلم تنشر سوى القليل منها ، مثل قصص ابراهيم أصلان ، وموسى كريدي ، وعبد الحكيم قاسم . والذي يبدو لي أن صاحبي « الآداب » صارا يعطيان الاولوية للقصص السياسية من ناحية ، وصارا نائيين عن تجربة الاجيال الادبية الشابه الرافضة ، والمدينة للواقع ، أو التي تتكىء وتركز على تجربة الاغتراب في حياتهم . لقد كان حدثا حقيقيا في الخمسينات أن تطلق « الآداب » في الساحة الادبية طاقات جديدة شابة ، ربما لان صاحبها كان من بينها ، وأثبتت هذه الطاقات جدارتها . واضافت أسماء جديدة الى أسماء الاعلام في الادب العربي الحديث . وما يزال عليها أن تستمر بنفس الدور ، ولنفس الاسباب التي بدأت بها ، اذا شاءت أن لا تلحقها الشيخوخة التي تلحقنا جميعا ، والتي أصابت من قبلها مجلتي « الثقافة » و « الرسالة » وسواهما ، فتستمر في الصدور حينا ، ثم تذوي شمعتها ، أو تصدر ما امتد بها العمر ، وشاءت لها الظروف دون أن يكون لها أدنى تأثير ، أو يجري معها أي تفاعل . لانها كفت بالفعل أن تلعب دورا في الحياة الادبية ، وأن تحمل مشعلا ورسالة .

★

بالوسع ، وبالضروره ، أن يلجأ المؤرخ الادبي للقصة العربية في هذه الفترة، الى أعداد « الآداب » ، وفهرسها العام المنتظر ليتابع ظواهر القصة العربية في الربع الثالث من القرن العشرين ، ويرى انعكاس الاحداث السياسية ، والحياة الاجتماعية في مرآتها ، وليتابع حركة النقد الادبي للقصة ، وتنظيراته وتطبيقاته ، بل ليتعرف على تطور تأريخي وأدبي كامل لعديد من القصاصين العرب . الذين صاروا بعد جيل القصاصين في العقود الماضية علامات بارزة في تاريخ القصة العربية الحديثة . ان « الآداب » في رأيي ، من هذه الناحية ، ستكون أول مرجع محتوم ، لدراسة القصة العربية . ابداعاتها ونقدها ، لاجيال «الآداب» ، بل وللاجيال السابقة عليها . ومن هنا تأتي أهمية الفهرس العام « للآداب » عبر ربع قرن من عمرها ، وأهمية التحليل للقصص التي رصدها هذا الفهرس ، لدراسة مضامينها وأشكالها ، والآثار والبقايا الكلاسيكية والرومانسية فيها ، والتيارات الواقعية التي تتنازع تجاربها ، حتى لدى القاص العربي الواحد ، من قصاصي الخمسينات والستينات والسبعينات .

★

ثمة ظواهر استرعت انتباهي بشدة فيما نشر من قصص على صفحات « الآداب » ، تدور كلها حول قالب هذه القصة ، وحجمها ، وبالتالي تصنيفها الاصطلاحي . أتاحت « الآداب » الفرصة لما يمكن ان نسميه بالقصة

القصيرة جدا والتي يسميهـــا بعضهم بالاقصوصة ، وبعضهم بالصورة القصصية ، وبعضهم باللوحة القلمية . ولكنها كانت اقل النماذج عددا في تاريخ « الآداب » . أتاحت « الآداب » الفرصة للقصه القصيرة التي تـدور حول حدث واحد ، أو لحظة ، أو مـــوقف ، أو حالة . وهذا اللون من القصة أذكر وفرته على صفحات أعـداد « الآداب » . لكن الظاهره الاخطر والاكبر ، ليس لعددها. ولكن لجدتها ، هي ان « الآداب » اتاحت الفرصة لمـــا نسميه بالقصة القصيرة الطويلة ، بل ونشرت عددا كاملا من الروايات القصيره على صفحاتها . لقـد جرت عادة المجـلات الادبيـــة في الثلاثينات والاربعينات ان تنشر الاقاصيص ، والقصص القصيرة ، لتقدم أوفر ماده . تاركة المجال لنشر القصص القصيرة الطويلة ، والروايات القصيرة والطويلة للكتب . ولما كان ما يزال نشر كتاب في عالمنا العربي أمرا عسيرا ، وبالغ الصعـوبة ، ومحفوفـا بالمكاره ، وبالخسائر ، فقد آثر كثيرون من الكتاب ان يكتبوا القصص القصيـــرة ، والاقاصيص ، لننشرهـــا بالمجلات . وكان هذا المأزق هو أحد الاسباب الواضحة ، في قلة النماذج المكتوبة مـن القصص القصيرة الطويلة . لكن هذا القالب في القصة هو القالب السائد الآن فـي القصص العالمي ، يليه قالب الروايات القصيرة ، لاكثـر من سبب لا مجال لمناقشتها هنا . وجاءت « الآداب » ، فقدمت البنط الطباعي الصغير غالبا لنشر القصص على صفحاتها ، وأتاحت بذلك الفرصة لانطلاق القاص العربي، متجاوزا الاقصوصة ، والقصة القصيرة ، الـى القصة القصيرة الطويلة . بل والرواية القصيرة . فأعطى قلمه وتجربته بهذا الانطلاق حرية لم تكن متاحة له في معالجة تجاربه القصصية التي تتجاوز قالب الاقصوصة . وقالب القصة القصيرة ، والتي تقصر فـي ذات الوقت عن أن تكون تجربة روائية . وقدر لنا نتيجة لذلك أن نكتب وأن نقرأ قصصا قصيرة طويلة مثل البدوي، والنوافذ المغلقة، وصفعة سوط ، وصهيل الجـواد الابيض ، وأصوات ، والقرين . وتلك ظاهرة جديرة بالتقييم والالتفات مـن ناقدي القصة ومؤرخيها .

★

على صفحات « الآداب » ، كـــان ميلاد أول قصة نشرت لي عام ١٩٥٤ . ومن صفحـــات « الآداب » ، ومنشورات دارها ، كـــان جزء هام وحي من ثقافتـي القصصية والنقدية .

على صفحات « الآداب » ، نشرت عبر عشرين سنة ما يقرب من خمسين قصة ، أكثرهـــا قصص قصيرة طويلة ، هي معظم ما كتبته من قصص في حياتي . اذا بقي لي منهـا عشر قصص لتعيش قرنـــا آخر ، فذلك حسبـي .

على صفحات « الآداب » ، صار لي قراء ، ورفاق درب ، بيني وبينهم توثقت عرى صداقـــة حميمة ، ولا أعرف لاكثرهم وجوها . قد نلتقي صدفـة ، في عاصمة من عواصم الادب العربي ، فاذا بنا كأننا نعرف بعضنـا منذ الصبا . لقـــد انهارت فيما بيننا الحدود والحواجز والسدود . تجاوزنا الاقليمية والقطرية ، بل تجاوزنـــا أدبيا أطرنا القومية . وصار كل كاتب في العالم ، كـل قارىء في الدنيا ، صديقا لنا ، مـــن عالمنا ، وعصرنا ، نعرفه ، ونفهم عنه ، ويفهم عنا .

على صفحات « الآداب » ، وجـــدت الانعكاس ، جانبا هاما منه ، لقضـــايا وطني وأمتي ، فكرا وثقافة ، ادبا وفنا ، شعرا وقصا .

توجعني المشاعر الحميمة بيني وبين خمس وعشرين سنة ، بيني وبين كتاب « الآداب » ، وقراء « الآداب » . بيني وبين « الآداب » . وأسأل نفسي : ما الذي يحدث لنا ؟! ولم نتعثر فـي الطريق ؟! الـــى متى ؟! وكيف الخلاص ؟! كيف النجاة من هوى التخلف ومصائر الامم البائدة ، والحضارات المنقرضة ؟!

تحية « للآداب » ، وصاحبيها ، وأملا في استمرار « الآداب » ، كما عهدتهـــا في اخصب سنوات عمرهـا وعمري !!

القاهرة — **سليمان فياض**

صدر حديثا